سادساً: العمل والمال في الإسلام

الحديث الرابع والعشرون: اليد العليا خير من اليد السفلى

حـدثنا عبـدانُ، أخبرنـا عبد الله، أخبرنـا يـونس عن الـزهري عن عـروة بن الزبير، وسعيـد بن المسيَّب أن حكيم بن حزام - رضي الله عنـه - قال: «**سألتُ رسول الله ﷺ فأعطانـي، ثم سألتـه فأعطانـي، ثم سألته فأعطـاني، ثم قـال: يا حكيم، إن هـذا المال خضرةٌ حلوةٌ، فمن أخـذه بسخاوة نفس بورك لـه فيه، ومن أخـذه بإشراف نفسٍ لم يُبارك لـه فيه، كالـذي يأكل ولا يشبع. اليـد العليا خير من اليد السفلى. قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأُ أحدًا بعدَك شيئًا، حتى أفارق الدنيا. فكـان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يدعو حكيمًا إلى العطـاء فيأبى أن يقبلـه منـه. ثم إن عمـر ـ رضي الله عنـه ـ دعـاه ليعطيـه فأبى أن يقبل منه شيئًا، فقال عُمر: إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم أني أعـرضُ عليه حقـه من هذا الفـيء فيأبى أن يأخذه، فلم يـرزأ حكيمٌ أحدًا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى توفي**».

- تخريج الحديث:

١ - فتح الباري، ج٣، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف في المسألة، حديث رقم ١٤٧٢، ص ٣٣٥، باب الصدقة على اليتامى، ص ٣٢٧.

٢ - صحيح مسلم بشرح النووي، ج٧، بـاب بيان أن اليد العليـا خير من اليد السفلى، وأن اليد العليا هي المنفقة، وأن السفلى هي الآخذة، ص ١٢٦.

٣ - سنن النسائي بشرح السيـوطي ج٥، كتاب الزكـاة، باب مسألـة الرجل في أمر لا بد له منه، ص ١٠١.

٤ - سنن الدارمي، ج٢، كتاب الرقاق، باب الدنيا خضرة حلوة، ص ٣١٠.

٥ - مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٣، ص ٢١، ج٤، ص ٩٢، ٩٣، ٩٨.

٦ - تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، ج٧، باب القيامة، باب الزهد.

- المعاني اللغوية والبلاغية:

«إن هذا المال خضرة»: أنث الخبر؛ لأن المراد الدنيا.

«خضرة حلوة»: شبه ﷺ الدنيا بالفاكهة الخضراء؛ لأن الأخضر مرغوب فيه بالنسبة إلى اليابس، والحلو مرغوب فيه بالنسبة للحامض، فالإعجاب بهما إذا اجتمعا أشد.

«بسخاوة نفس» أي بغير شره ولا إلحاح.

«كالذي يأكل ولا يشبع» أي كالذي يسمي جوعه كذابًا؛ لأنه من علة به وسقم، فكلما أكل ازداد سقمًا ولم يجد شبعًا.

«اليد العليا خير من اليد السفلى» ذكر العلماء أن الأيدي ثلاثة:

فيد الله العليا، ويد المعطي التي تليها، ويد السائل السفلى. ولأحمد والبزار من حديث عطية السعدي: «اليد المعطية هي العليا، والسائلة هي السفلى». وهناك أحاديث متضافرة على أن اليد العليا هي المنفقة، وأن السفلى هي السائلة، وهذا هو المعتمد وهو قول الجمهور:

وقيل: اليد السفلى الآخذة سواء كان بسؤال أم بغير سؤال، وهذا أباه قوم واستندوا إلى أن الصدقة تقع في يد الله قبل يد المتصدق عليه.

«لا أرزأ» بفتح الهمزة وإسكان الراء وفتح الزاي بعدها همزة، أي لا أنقص ماله بالطلب منه.

- الراوي:

هو حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي الأسدي. تأخر إسلامه فأسلم يوم الفتح وغزا حنينا والطائف، وكان من أشراف قريش وعقلائها ونبلائها، وكانت خديجة ـ رضي الله عنها ـ عمته، وكان الزبير ابن عمه.

كان إذا اجتهد في يمينه قال: لا، والذي نجاني يوم بدر من القتل. عاش طويلاً، وحسن إسلامه، وشرف بالمثول بين يدي الرسول ﷺ طالبًا وسائلاً ومتعلمًا. ونال عناية خاصة من نبي الهدى ﷺ. قال عروة عمن حدثه: إن النبي ﷺ قال: «يا حكيم إن الدنيا خضرة حلوة. . .» إلخ الحديث. قال: فما أخذ حكيم من أبي بكر ولا ممن بعده ديوانًا ولا غيره.

قال حكيم: كنت تاجرًا، أخرج إلى اليمن وآتي الشام، فكنت أربح أرباحًا كثيرة، فأعود إلى فقراء قومي، وابتعت من سوق عكاظ زيد بن حارثة لعمته (يعني خديجة) بستمائة درهم. فلما تزوج بها رسول الله ﷺ وهبته زيدًا فأعتقه. فلما حج معاوية، أخذ معاوية مني داري بمكة بأربعين ألف دينار، فبلغني أن ابن الزبير قال: ما يدري هذا الشيخ ما باع. فقلت: ما ابتعت إلا بزق من خمر، وكان لا يجيء أحد، يستحمله في السبيل إلا حمله.

وقيل: إن حكيمًا باع دار الندوة لمعاوية بمائة ألف، فقال له ابن الزبير: بعت مكرمة قريش. فقال: ذهبت المكارم يا ابن أخي إلا التقوى. إني اشتريت بها دارًا في الجنة. أشهدكم أني قد جعلتها لله.

هكذا تحول هذا الصحابي الجليل من السائل إلى المعطي، المنفق في سبيل الله، الراجي لقاء ربه.

وقيل: إنه دُخل على حكيم عند الموت وهو يقول: لا إله إلا الله قد كنت أخشاك، وأنا اليوم أرجوكَ. وقد بلغ عدد مسنده أربعين حديثًا[1].

- المعنى العام:

هذا الحديث حلقة من حلقات العلاج البطيء، المديد، الدقيق لظاهرة اجتماعية معروفة، ظاهرة طلب المال والإلحاح في السؤال لقضاء الحاجات المادية، والحديث يعالج التخلص من الشح والاستعلاء على الحرص، كما أنه يبعث شعورًا بواجب الغني تجاه المحروم نحو هذه الأمة المتضامنة المتكافلة. والسائل الذي يسأل والمحروم الذي لا يسأل ولا يعبر عن حاجته فيحرم.

وأراد الله تعالى أن يبدأ العلاج من رجل ينتمي إلى عشيرة الرسول ﷺ وهو حكيم بن حزام ــ رضي الله عنه ــ وممن تأخر إسلامه وعُدّ من المؤلفة قلوبهم. يقول حكيم بن حزام: «سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: يا حكيم إن هذا المال خضرةٌ حلوةٌ، فمن أخذه بسخاوة نفس... إلخ».

- علاج السائل بالإشباع والإعطاء:

وقفة من وقفات التربية الشاملة في داخل النفس، وفي خلال دروبها ومنحنياتها ورواسبها لتهذيبها وتنقيتها من رواسب الشح والحرص على المال ولتبرز خلال ذلك سمات النفس المؤمنة الوضيئة، ومنهجها في الشعور والسلوك، وفي العفاف والسمو، واستحقاقها للتقدير والتكريم. وظل يعطي الرسول ﷺ حكيم بن حزام ـ رضي الله تعالى عنه ـ ثلاث مرات متتالية ليعالج ظاهرة طلب المال والإلحاح في السؤال. ثم بدأ يُوجه حتى لا تصبح عادة؛ لأن

---

(١) سير أعلام النبلاء: (سيرة حكيم بن حزام) ج٣، ص ٤٤ ـ ٥١.

الإنسان لو تـرك ليظل مستسلمًا لنزعات حرصه وتطلعه لأصبح عـالة على نفسه وعلى جماعته. من هنـا كان لا بـد من توجيه طمـوحه إلى قيم أرفع ومعـانٍ أخلد ورزق أبقى. فقـال له ﷺ: «اليـد العليا خير من اليـد السفلى». وقال تعـالى: **﴿ولا تمدن عينيك إلى مـا متعنا بـه أزواجًـا منهم زهرة الحيـاة الـدنيا لنفتنهم فيـه ورزق ربك خير وأبقى﴾** (١).

﴿زين للنـاس حـب الشهـوات من النسـاء والبنين والقنـاطير المقنطـرة من الـذهب والفضة والخيل المسـومة والأنعـام والحرث ذلك متاع الحيـاة الدنيـا والله عنده حسن المآب﴾(٢).

وتكمن وظيفة الإسلام في توجيه النفـوس إلى القيم المعنوية الخالدة وإلى الدار الآخرة البـاقية، وإلى الله الحي الذي لا يموت. ومن هـذا المنطلق خاطب النبي ﷺ الصحابي المبارك قائلاً: «يـا حكيم: إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بـورك له فيه، ومن أخذه بـإشراف نفس لم يبارك له فيه، كـالذي يأكل ولا يشبع». وليعلم المؤمن أن الغنى ليس في وفـرة المال وكثرة المتـاع، وإنما الغنى غنى النفس. وفي الحديث: «ليـس الغنى عن كثـرة العـرض، إنما الغنى غنى النفس» (٣).

وقد تأثر الصحابي الجليل حكيم بن حـزام بهذا الأسلوب النبوي المعطاء المثير للنفس والقلب فقـال: «يا رسـول الله والذي بعثك بـالحق لا أرزأ أحدًا بعـدك شيئًا حتى أفـارق الدنيا». وهنـاك نماذج أخرى تبين مـدى نجاح هذه الطـريقة الكريمة. عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: «إن ناسًا من الأنصار

---

(١) طه: ١٣١.

(٢) آل عمران: ١٤.

(٣) متفق عليه.

سألـوا رسول الله ﷺ فأعطـاهم، ثم سألـوه، فأعطاهم حتى إذا نفـد ما عنـده قال: ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنـه الله، ومن تبصر بصره الله، ومـا أعطي أحـد من عطـاء أوسع من الصبر». أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي[1].

فإكـرام السائل وإشبـاع رغبته من الـوسائل النـاجحة لعـلاج النفس، ورفع معنـوية السـائل حتى يتـوب ويتعفف ويسمو، ويتخـذ من عمل يـده طريقًـا للحياة، ووسيلة للكسب.

وهناك أدلـة توضح أن هذا الأسلـوب التربوي، أسلوب العطـاء والتكريم، كـان له تأثيره المبـاشر في نفسيـة السـائل. روي عن طريق عبـد الـرحمن بن أبي سعيـد الخدري عن أبيه مـا يدل على أن أبـا سعيـد راوي هذا الحديث خـوطب بشيء من ذلك. ففي حـديثه: «سرحتني أمي إلى النبي ﷺ - يعني لأسألـه من حـاجة شـديـدة - فأتيته وقعـدت، فـاستقبلني وقال: من استغنى أغنـاه الله» الحديث. وزاد فيـه: «ومن سأل وله أوقيـة فقد ألحف، فقلت: نـاقتي خير من أوقية، فرجعت ولم أسأله»[2].

وهذا الصحـابي الناشئ أبو سعيـد الخدري ـ رضي الله عنـه ـ سرعان مـا تأثر بهذا التوجيه النبوي، وتـوقف عن إبداء حاجته وعاد قانعًـا بفكرة عدم السؤال. وهذا الحديث نمـوذج جميل ناجح لمواجهة النفوس وتنقيتهـا وتوجيه البصيرة إلى الطريق المستقيم.

---

(١) مختصر سنن أبي داود، للحافظ المنـذري وتهذيب ابن القيم ج١، باب ما يجوز فيه المسألـة، وباب في الاستعفاف، ص ٢٤١.

(٢) الفتح، ج٣، ص ٣٤١.

- علاج السائل بالتكريم والتقدير:

والإسلام يوجه المؤمن إلى إكرام اليتيم والنهي عن قهره، وإغناء السائل مع الرفق به والكرامة لشخصه. قال تعالى: ﴿**فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث**﴾(١). ومن باب التحدث بنعمة الله وبنعمة الهدى والإيمان تكريم السائل وتقديره. عن حسن بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس»(٢).

والحديث يشير إلى حسن الظن بالسائل إذا تعرض لك، فلا تجابهه بالتكذيب والرد السيئ مع إمكان الصدق في أمره. يقول: لا تخيب السائل إذا سألك، وإن راقك منظره، فقد يكون له فرس يركبه ووراء ذلك عائلة ودين يجوز له معهما أخذ الصدقة(٣).

- كراهية الإسلام للسؤال:

بالغ الإسلام في النهي عن مسألة الناس والتحذير منها؛ لأنها لا تليق بشخصية المؤمن الكامل. عن سمرة - وهو أبو جندب - قال: المسائل قدوح يقدح بها الرجل وجهه، فمن شاء أبقى على وجهه، ومن شاء ترك إلا أن يسأل الرجل ذا سلطان أو في أمر لا يجد منه بدٌ(٤).

هكذا ظل النبي ﷺ ينفر أصحابه عن المسألة في مناسبات مختلفة. عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من تكفل لي ألا يسأل الناس شيئًا أتكفل له بالجنة؟ فقال ثوبان: أنا، فكان لا يسأل أحدًا شيئًا»(٥).

---

(١) سورة الضحى: ٩ ـ ١١.
(٢) مختصر سنن أبي داود، تهذيب ابن القيم، ج٢، باب حق السائل، ص ٢٥٠.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) مختصر سنن أبي داود، تهذيب ابن القيم، ج٢، باب ما يجوز فيه المسألة، ص ٢٣٧.
(٥) المصدر نفسه، باب كراهية المسألة، ص ٢٤١.

ولهذا الأسلوب النبوي أثر في القلب والنفس، وترك كثير من الصحابة عادة السؤال. عن عوف بن مالك قال: «كنا عند رسول الله ﷺ سبعة أو ثمانية أو تسعة فقال: ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟ وكنا حديثي عهد ببيعة. قلنا: قد بايعناه. حتى قالها ثلاثة، وبسطنا أيدينا، وقال قائل: يا رسول الله إنا قد بايعناك، فعلام نبايعك؟ قال: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وتصلوا الصلوات الخمس، وتسمعوا وتطيعوا، وأسر كلمة خفية، قال: ولا تسألوا الناس شيئًا. قال: «لقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه فما يسأل أحدًا أن يناوله إياه». وأخرجه مسلم والنسائي وابن ماجه[1].

أرأيت كيف ربى النبي ﷺ أمته على السمو والشرف والابتعاد عن السفاسف وإراقة ماء الوجه في وقت كان الصحابة - رضوان الله عليهم - يعانون شظف العيش، وضيق ذات اليد، ومع ذلك تربوا على معان وقيم، وأدركوا معنى كلمة اليد العليا خير من اليد السفلى.

وأكثر من تأثر بهذا الأسلوب التربوي المثير والموفق هو راوي هذا الحديث الصحابي الجليل حكيم ان حزام، فتاب عن السؤال ورفض أن يقبل من أحد. «فكان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يدعو حكيماً إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئًا، فقال عمر: إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم أني أعرض عليه حقه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم أحدًا من الناس بعد رسول الله ﷺ، حتى توفي».

فكانت شخصية حكيم بن حزام من الشخصيات النموذجية التي أثرت

---

(١) المصدر نفسه، باب كراهية المسألة، ص ٢٤١.

فيها تربية الرسول ﷺ له، وظهرت معالم هذه التربية وبصماتها على سلوكه وسموه، وأراد الله تعالى له أن يعيش مائة وعشرين سنة وحسن إسلامه وكثر ماله. «عن مصعب بن ثابت يقول: بلغني والله أن حكيم بن حزام حضر يوم عرفة ومعه مائة رقبة، ومائة بدنة، ومائة بقرة، ومائة شاة، فقال الكل لله».

عن أبي حازم ما بلغنا أنه كان بالمدينة أكثر حملاً في سبيل الله من حكيم.

حدثنا شعبة قال: «لما توفي الزبير لقي حكيم عبد الله بن الزبير فقال: كم ترك أخي من الدين؟ قال: ألف ألف: قال: عليَّ خمسمائة ألف»[1].

نموذج فريد للشخصية الإسلامية المتكاملة التي تربت بين أحضان النبوة، وتخلت عن عاداتها البيئية، وانصرفت عن السؤال بإشراف نفس، فبارك الله تعالى في ماله، وعمره، وتحولت هذه الشخصية السائلة إلى الشخصية المؤمنة المنفقة في سبيل الله الباذلة لله ولوجه الله.

- علاج السائل بتوجيهه إلى العمل:

عالج الإسلام مشكلة السؤال وطلب العون علاجًا شاملاً، ودرس كافة البواعث النفسية والمعوقات العملية التي تثبط الناس عن العمل والسعي وتدفعهم إلى التسول.

الإسلام يطلب من المؤمن المشي والحركة في مناكب الأرض ﴿**فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه**﴾[2]. فمن مشى أكل، ومن كان قادرًا على المشي ولم يمشِ كان جديرًا أن لا يأكل. وقال تعالى: ﴿**فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون**﴾[3]. فمن سعى

---

(١) سير أعلام النبلاء ج٣. ترجمة حكيم بن حزام، ص ٤٤.
(٢) سورة الملك: ١٠.
(٣) سورة الجمعة: ١٠.

وانتشر في الأرض مبتغيًا فضل الله كان أهلاً أن ينال من رزقه، ومن قعد وتكاسل كان جديرًا بأن يحرم.

ولذلك كان ﷺ يحث أصحابه على العمل والنشاط ويرشدهم إلى مجالات العمل. عن ابن شهاب، عن أبي عبيد مولى عبد الرحمن بن عوف أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول ﷺ: «لأن يحتزم أحدكم حزمة من حطب فيحملها على ظهره فيبيعها خير له من أن يسأل رجلا يعطيه أو يمنعه» (١).

فبين أن مهنة الاحتطاب على ما فيها من مشقة وما يحوطها من نظرات الازدراء، وما يرجى فيها من ربح قليل خير من البطالة وتكفف الناس. وظل يركز على هذه الناحية في فترات مناسبة.

عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره، فيتصدق به ويستغني به من الناس خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه، أو منعه ذلك، فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى وابدأ بمن تعول» (٢).

- العلاج التطبيقي:

ولم يكتف النبي ﷺ بهذا البيان النظري، بل وقف يعالج مشكلة السائل المحتاج بالمعونة المادية الوقتية. «عن أنس بن مالك: أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله فقال: أما في بيتك شيء؟ قال: بلى، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه الماء، قال: ائتني بهما، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ وقال: من يشتري هذين؟ قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال:

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، ج٧، باب النهي عن المسألة، ص ١٣١.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٣١.

من يزيد على درهم؟ مرتين أو ثلاثًا. قال رجل: أنا أخذهما بدرهمين. فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين، فأعطاهما الأنصاري، وقال: اشتر بأحدهما طعامًا إلى أهلك، واشتر بالآخر قدومًا فائتني به، فشد فيه رسول الله ﷺ عودًا بيده، ثم قال له: اذهب فاحتطب، وبع ولا أرينك خمسة عشر يومًا. فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوبًا، وببعضها طعامًا. فقال رسول ﷺ: «هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة؛ إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع»(١). أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. إن هذا الحديث نموذج جميل لمعالجة مشكلة السائل، ولك أن تستحضر المجتمع المدني المكون من المهاجر، ومن الأنصاري، ومن مزارع، وتاجر، ومن عاطل، ومن فقير لا يجد مجالاً للعمل والكسب. ونبي الهدى ﷺ وقف موجهًا ومربيا، يوجه الناس ويرشدهم، ويبين لهم أن السؤال لا يليق بشخصية المؤمن القوي، ولا يعالج بالوعظ المجرد فقط، والتنفير من المسألة، بل يقف ويأخذ بين السائل في حل مشكلته بنفسه، ويعلمه أن يستخدم كل ما عنده من طاقات وإن صغرت، وأن يستنفد ما يملك من حيل وإن ضؤلت، فلا يلجأ إلى السؤال، ويعلمه أن كل عمل يجلب رزقًا حلالاً هو عمل شريف ولو كان احتطاب حزمة يجتلبها فيبيعها. وأرشده إلى العمل الذي يناسب شخصه وقدرته وهيأ له آلة العمل الذي أرشده إليه، فإذا به يكسب في اليوم الواحد عشرة دراهم ويعطيه فرصة خمسة عشر يومًا يستطيع أن يعرف منه مدى ملاءمة هذا العمل له ووفاءه بمطالبه، فلا يقل عن ثلاثمائة درهم شهريًّا.. وهو في هذه الحالة يخرج من دائرة السؤال «لذي فقر مدقع، ولذي غرم مفظع... إلخ» الحديث.

---

(١) مختصر سنن أبي داود، ج٢، باب ما يجوز فيه المسألة، ص ٢٤٠.

- فقه الحديث

١ - المسألة لا تجوز إلا لثلاثة :

١ - «لذي فقر مدقع» : وهو الفقر الشديد الذي يفضي به إلى التراب فلا يكون عنده ما يقي به التراب .

٢ - «الغرم المفظع» : هو أن تلزمه الديون الفظيعة الفادحة ، حتى ينقطع به فتحمل له الصدقة ، فيعطى من سهم الغارمين .

٣ - «الدم الموجع» : هو أن يتحمل حمالة في حقن الدماء وإصلاح ذات البين ، فتحل له المسألة فيها[١] .

ومنه تحملت حمالة وهي المال الذي يتحمل الإنسان أن يستدينه ويدفعه في إصلاح ذات البين ، كإصلاح بين القبيلتين ونحو ذلك ، وإنما تحل له المسألة ويعطى من الزكاة بشرط أن يستدين لغير معصية [٢] .

٢ - اختلف العلماء فيمن جاءه مال ، هل يجب قبوله أو يندب؟ على ثلاثة مذاهب ، حكاها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري وآخرون ، والصحيح المشهور الذي عليه الجمهور أنه يستحب في غير عطية السلطان ، وأما عطية السلطان فحرمها قوم ، وأباحها قوم ، وكرهها قوم . والصحيح أنه إن غلب الحرام فيما في يد السلطان حرمت ، وكذا إن أعطى من لا يستحق ، وإن لم يغلب الحرام فمباح إن لم يكن في القابض مانع يمنعه من استحقاق الأخذ . وقالت طائفة : الأخذ واجب من السلطان وغيره ، وقال آخرون هو مندوب في عطية السلطان دون غيره ، والله أعلم[٣] .

---

(١) مختصر سنن أبي داود ، ج٢ ، باب ما يجوز فيه المسألة ، ص ٢٤٠ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج٧ ، من تحل له المسألة ، ص ١٣٣ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ، ج٧ ، باب جواز الأخذ بغير سؤال ولا تطلع ، ص ١٣٥ .

٣ - وفي الحديث جواز تكرار السؤال ثلاثًا، وجواز المنع في الرابعة، وأن السؤال الأعلى ليس بعار، وأن رد السائل بعد ثلاث ليس بمكروه[١].

- ما يستفاد من الحديث:

١ - الحديث يشير إلى أنه قد يقع الزهد مع الأخذ، فإن سخاوة النفس هو زهدها. تقول سخت بكذا، أي جادت وسخت عن كذا، أي تلتفت إليه.

٢ - ويشير إلى أن الأخذ مع سخاوة النفس يحصل أجر الزهد والبركة في الرزق.

٣ - ويشير إلى أنه ينبغي للإمام أن لا يبين للطالب ما في مسألته من مفسدة إلا بعد قضاء حاجته لتقع موعظته له الموقع لئلا يتخيل أن ذلك سبب لمنعه من حاجته[٢].

٤ - والحديث يشير إلى أنه على كل فرد مسلم أن يسعى ويعمل ويجتهد ملتمسًا الرزق في خبايا الأرض وتحت أديم السماء، كيفما كان العمل الذي يزاوله زراعة أو صناعة أو تجارة أو احترافًا بأي حرفة من الحرف النافعة؟

٥ - ويشير إلى أنه على الحاكم المسلم أن يكرم السائل بالإعطاء والإشباع، ثم ييسر له سبيل العمل ما وجد إلى ذلك سبيلا، وأنه إذا كان السائل في حاجة إلى إعداد خاص، أو تدريب مهني يستطيع به أن يجد العمل المناسب فمن واجب الجماعة والحكومة أن تساعد على ذلك حتى ينهض بعبء العمل وحده دون طلب لمعونة أو صدقة.

٦ - وعلى المجتمع الإسلامي حكامًا ومحكومين أن يحنّدوا كل طاقاتهم ويستغلوا كل ما يحتاجون إليه من ثرواتهم للتغلب على ضيق ذات اليد؛ إذ لا شك أن زيادة الإنتاج وتنمية موارد الثروة لها أثرها الفعال في قفل باب السؤال.

---

(١) فتح الباري، ج٣، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، ص ٣٣٧.
(٢) فتح الباري، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، ص ٣٣٧.

الحديث الخامس والعشرون: الترغيب في العمل والتنفير من المسألة

حدثنا يحيى بن بُكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن أبي عبيد مولى عبد الرحمن بن عوف أنه سمع أبا هريرة - رضي الله عنه - يقول: قال رسول الله ﷺ: «**لأن يحتطب أحدكم حزمةً على ظهره خير من أن يسأل أحدًا فيُعطيه أو يمنعه**».

- تخريج الحديث:

- فتح الباري: كتاب البيوع، باب: كسب الرجل وعمله بيده، ج٤، ص ٣٠٤.

- وأخرجه في كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أيضًا بشيء يسير من الاختلاف، قال: «والذي نفسي بيده؛ لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه».

- وأخرجه أيضًا عن هشام عن أبيه عن الزبير بن العوام - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».

- وأخرج ابن ماجه في كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يأخذ أحَدُكم أحباله فيأتى الجبل فيجيء بحزمة حطب على ظهره فيبيعها، فيستغني بثمنها خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».

- وأخرجه أحمد في مسنده في الجزء الأول، صفحة ١٦٧ بنفس السند والمتن.

- المعاني اللغوية:

الحطب: محرّكة: ما أُعد من الشجر شبوبًا، حَطَبَ كضرب: جمعه - احتطب فلانًا، أي جمعه له، أو أتاه به. واحتطب: رعى دِق الحطب.

والحطوبة: شبه حزمة من حطب.

الحطب جمعه أحطاب، والقطعة حطبة، الحطبة: ما أعدّ من الشجر وقود للنار.

حزم: يحزُم حزمًا، كان يضبط أمره ويحكمه ويأخذ فيه بالثقة فهو حازم.

الحُزمة: جمعه حبال وأحبُل وأحبال: الرباط (الرّسن) يقال حَزِم حباله أي قاطعه، وفي ابن ماجه عن الزبير بن العوام - رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «لأن يأخذ أحدكم أحبُله فيأتى الجبل فيجيء بحُزْمة حطب على ظهره فيبيعها، فيستغني بثمنها خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه».

- المعنى العام للحديث:

الإسلام دين العمل والإنتاج، ودين السعي والكسب، والمؤمن مأمور أن يمشي في مناكب الأرض، ويبحث عن سبل العمل، وقال تعالى: ﴿**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه**﴾ (١).

والمراد بالعمل بذل المجهود والأخذ بأسباب الإنتاج ووسائله. وقد اقتضت سنة الله في الخلق أن لا ينال الإنسان شيئًا مما على الأرض، أو مما في باطنها من نعم وأرزاق وأقوات إلا بجهد يُبذل، وعمل يُؤدى.

---

(١) الملك: ١٥.

والعمل نوع من العبادة بمعناها العام، وقد خلق الله الإنسان ليعمر هذه الأرض كما جاء في قوله تعالى: ﴿**يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾(١).

ولكن اقتضت حكمة الله في الخلق أن هذه الأرزاق التي ضمنها والمعايش التي ينشرها لا تناسب إلا بعد أداء الشعائر التعبدية، وبعد مراعاة الأولوية كما في قوله تعالى: ﴿**فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون**﴾(٢).

هذا هو الترتيب والتوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي، التوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض من عمل وكدّ ونشاط وكسب، وعزلة الروح فترة عن هذا الجوّ وانقطاع القلب وتجرّده للذكر، وهي ضرورة لحياة القلب، لا يصلح بدونها للاتصال والتلقي والنهوض بتكاليف الإمامة الكبرى، وذكر الله لا بدّ منه في أثناء ابتغاء المعاش والشعور بالله هو الذي يحوّل نشاط المعاش إلى عبادة، وإذا اختل التوازن وطغت المادة على الروح يجب محاسبة النفس، وإعادة أمور الترتيب والتوازن إلى ميزان الشرع.

ويشير القرآن الكريم إلى ذلك ﴿**وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين**﴾(٣).

وفي الآية تلميح لهم بما عند الله وأنه خير من اللهو ومن التجارة وتذكيرهم بأن الرّزق من عند الله، فلا بدّ من مراعاة الأولوية في العبادة، ولا بد من مراعاة معاني الاعتدال والتوازن في الأمور كلها، وقد يختل هذا التوازن حتى في أحسن

---

(١) هود: (٦١).
(٢) الجمعة: (١٠).
(٣) الجمعة: (١١).

الأحوال وأبرك زمان، عن جابر - رضي الله عنه - قال: أقبلت عير ونحن نصلي مع النبي ﷺ الجمعة فانفض الناس إلا اثني عشر رجلاً فنزلت هذه الآية: ﴿**وإذا رأوا تجارة أو لهوًا انفضوا إليها وتركوك قائمًا**...﴾[1]، وهذا الحادث يكشف عن مدى الجهد الذي بذل في التربية وبناء النفوس حتى تجلت معاني الاعتدال، وحتى انتهت إلى إنشاء الجماعة المباركة التي تشبعت بروح الإسلام، وأدركت معاني التشريع وأسراره والمفاهيم الأولية وترتيبها في العبادات والمعاملات، فسادت وانقاد لها الجميع وتحقق بها الرقي للبشرية جمعاء.

والحادث يصوّر النفس البشرية بخيرها وشرّها ويكشف عن مدى صلاحيتها للفلاح والتزكي بلا حد ود مع الصبر والفهم والإدراك والثبات، وهي قابلة بأن تتخلى عن عاداتها البيئية، وتتقبل أحكام وتوجيهات الشريعة عندما تجد الموجه المخلص المتأسي بأسوة رسول الله ﷺ.

ومن الناس من يحقر بعض الحرف ويستهين بها كما كان الحال عند كثير من العرب الذين يحتقرون الحِرف والعمل اليدوي، فلما جاء الإسلام بدل هذه المفاهيم المغلوطة، ورفع من قيمة العمل أيًّا كان نوعه، وحقر من شأن البطالة والاتكال على الآخرين.

وحث رسول الله ﷺ أصحابه على العمل والإنتاج، عن خالد بن معدان عن المقدام - رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود - عليه السلام - كان يأكل من عمل يده»[1].

وقد كان لهذا الحديث وغيره أثرٌ بالغٌ في سلوك الصحابة وتوجيه بصيرتهم،

---

(١) فتح الباري: كتاب البيوع، باب: إذا رأوا تجارة أو لهوًا انفضوا إليها: ٤/ ٣٠٠.
(٢) المصدر نفسه، باب: كسب الرجل وعمله بيده: ٤/ ٣٠٣.

فقد انطلقوا نحو مجالات الكسب وميادين العمل. حدثني أبو الأسود عن عروة قال: قالت عائشة رضي الله عنها: «كان أصحاب رسول الله ﷺ عمّال أنفسهم، فكان يكون لهم أرواح، فقيل لهم: لو اغتسلتم»(١).

وبهذه الكلمات الندية والمواقف التربوية دفع الرسول ﷺ القادرين إلى العمل والكسب الحلال، ونهى عن مسألة الناس. وحديث أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: «لأن يحتطب أحدكم على ظهره خير له من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه»(٢). ويتجلى مما سبق أن الأولوية كامنة في دفع المسلمين نحو الإنتاج والعمل، وولوج ميادين الكسب، ويعقب ذلك النهي عن المسألة، عن أبي جعفر قال: سمعت حمزة بن عبد الله بن عمر قال: سمعت عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة، وليس في وجهه مُزْعة لحم»(٣).

من أجل ذلك كان واجبًا على المسلمين أن يسلكوا جميع السّبل من أجل الكسب الحلال وبالطرق التي تتيح لهم الوقوف على أسرار هذا الكون وتحقيق المنفعة، وليس ذلك فحسب، بل واجب على المسلمين أن يكونوا روّادًا في هذا الميدان كما كانوا روّادًا في دعوة الناس إلى الإيمان بالله والعبودية له والتخلق بالأخلاق الكريمة في كل الميادين.

- فقه الحديث:

ذكر ابن حجر عن الماوردي قوله: «أصول المكاسب: الزراعة، والتجارة، والصنعة، والأشبه بمذهب الشافعي أن أطيبها التجارة، قال: والأرجح عندي أن أطيبها الزراعة؛ لأنها أقرب إلى التوكل، وتعقبه النووي بحديث المقدام الذي

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه، كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثرًا: ٣/ ٣٣٨.

في هذا البـاب، وأن الصواب أن أطيب الكسب ما كان بعمل اليـد، قال: فإن كان زراعة فهو أطيب المكاسب لما يشتمل عليه من كونه عمل اليد، ولما فيه من التوكل، ولما فيه من النفع العام للآدمي وللـدواب؛ ولأنه لا بدّ فيه في العادة أن يـؤكل منه بغير عـوض، قلت وفوق ذلك من عمل اليـد ما يكتسب من أمـوال الكفار بالجهـاد وهو مكسب النبي ﷺ وأصحابه، وهـو أشرف المكاسب لما فيه إعـلاء كلمة الله تعـالى وخـذلان كلمـة أعدائه والنفع الأخـروي. قـال: ومن لم يعمل بيده، فالـزراعة في حقه أفضل لما ذكرنـا. قلت: وهو مبني على ما بحث فيه من النفع المتعدي (١).

- ما يستفاد من الحديث:

١) من حق ولي الأمـر والمربي التـوجيـه للعمل والكسب الحلال والحض على ذلك.

٢) يشير الحديث إلى ضرورة العمل وينفـر من المسألة؛ لأن العمل هـو السلاح الأول لمحاربة الفقر، وعلى الإنسان أن يعمل ليغني نفسه بنفسه.

٣) العمل المناسب وسيلة لـلإنتاج وطريق للنهوض بـالمجتمع الإسلامي، ولذا أوصى الرسول ﷺ أصحـابه بالصناعات والحرف، وترك دقـائقه وتخصصاته فقال: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده» (٢).

وذكر أنه من مجالات الكسب السفر «سافروا تستغنوا..» (٣).

وقـال تعـالى: ﴿**ومن يهاجـر في سبيل الله يجد في الأرض مـراغمًا كثيرًا وسعة..**﴾(٤).

٤) العبرة في العمل وقيمته عنـد الله هو إعفاف النفس وصيانتهـا عن المسألة من

---

(١) المصدر نفسه: كتاب البيوع، باب كسب الرجل: ٤/ ٣٠٤.

(٢) فتح الباري، المصدر نفسه.

(٣) الطبراني في الأوسط.

(٤) النساء: ١٠٠.

الحديث السادس والعشرون: « الغِنى غِنى النفس »

حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا أبو بكر، حدثنا أبو حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**ليس الغِنَى عن كثرةِ العَرَضِ، ولكنَّ الغِنى غِنَى النَّفْس**».

- تخريج الحديث:

- رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب الغنى غنى النفس، وقول الله تعالى: ﴿**أيحسبون أن ما نُمِدُّهُم به من مال وبنين** ـ إلى قوله تعالى ـ **من دون ذلك هم لها عاملون**﴾. قال ابن عُيينة: لم يعملوها، لا بدَّ من أن يعملوها.

- رواه مسلم: كتاب الزكاة ـ باب فضل القناعة والحث عليها.

والمتن واحد كما جاء في البخاري.

- المعاني اللغوية:

عَرَض: يَعْرِضُ عَرَضًا: ظهر وبدا، ولم يدم الشيء لفلان، أظهره، والشيء عليه أراه إياه، والمتاع للبيع أظهره لذوي الرغبة فيه ليشتروه. وأما العَرَض فهو ما ينتفع به من متاع الدنيا، ويطلق بالاشتراك على ما يقابل الجوهر، وأيضًا على كل ما يعرض للشخص من مرض.

العَرَض: بتحريك الراء الواحد من العروض التي يُتجر فيها.

عَرْض: بإسكان الرّاء وهو ما سوى النقدين. وقال أبو عبيد: العروض الأمتعة، وهي ما سوى الحيوان والعقار، وما لا يدخله كيل ولا وزن. . .) وأما بالفتح فما يُصيبه الإنسان من حظه في الدنيا [1].

---

(١) فتح الباري: كتاب الرقاق، باب: الغنى غنى النفس: ١١/ ٢٧٢.

إن الإنسان بطبيعته شديد الطمع والحرص على الدنيا قال تعالى: ﴿**وتحبون المال حبًّا جمًّا**﴾[1]. لا يكاد يشبع منها أو يرتوي، وصور الرسول ﷺ هذه النفسية فقال: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب»[2].

والانشغال بالأموال والأولاد فتنة، وأي فتنة تحتاج إلى التوجيه والتناصح ومحاسبة النفس. «وكان لا بدّ لهذا الدين أن يهديه إلى الاعتدال في السعي والتجمل في طلب الرزق، وبذلك يُقيم التوازن في نفسه، وفي حياته، ويمنحه السكينة التي هي سر السعادة، ويُجنبه الإفراط والغلو الذي يرهق النفس والبدن معًا».

ولو ترك الإنسان لنزعات حرصه وطمعه لأصبح خطرًا على نفسه ومجتمعه، وعلى هذا الأساس لزم توجيه طموحه إلى القيم الرفيعة والمعاني السامية والرزق الباقي. قال تعالى: ﴿**زين للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب**﴾[3].

وفي هذه الآية تتجلى الشهوات المحببة للنفس البشرية والتي تميل إليها الفطرة الإنسانية، والبيان القرآني لا يدعو إلى استقذارها، أو كراهيتها، ولكن يدعو فقط إلى معرفة طبيعتها وبواعثها، ووضعها في مكان لا تتعدّاه ولا تطغى على ما هو أكرم منه في الحياة، ويلفت النظر إلى التطلع إلى آفاق أخرى سامية تهذب الرغبة في غير استغراق، ولا إغراق. وهذه الشهوات هي نموذج لشهوات

---

(١) سورة الفجر: ٢٠.

(٢) فتح الباري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال.

(٣) سورة آل عمران: ١٣.

النفـــوس، تمثل شهوات البيئة، والقرآن يعرضها ليُقيّمها ويعدلها إلى ميزان التوازن والاعتدال ﴿**ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب**﴾.

وإذا أراد الإنسان الخير السامي والمجد الباقـي الرفيع، فعليه بتقوى الله. قال تعالى: ﴿**قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد**﴾(١).

ففي ذلك المتاع النظيف العفيف والعوض الكامل الباقي عن المتاع الناقص الزائل، ويوضح هذا المفهوم الرسـول ﷺ في حديث آخر فيقول: «تعس عبد الـدينـار والـدرهم، والقطيفـة، والخميصـة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعط لم يرض»(٢).

ونظـرًا لأن حبّ المالَ منـزلق خطير في ظل القرآن والحديـث يعالجان هـذا الموضوع في فترات متلاحقة ومناسبات عديدة، قال تعالى: ﴿**ولا تمدّن عينيك إلى مـا متعنا بـه أزواجًـا منهم زهرة الحيـاة الـدنيا لنفتنهم فيـه ورزق ربك خير وأبقى**﴾(٣).

وظل النبي ﷺ يربي أصحابه على التقليل من حب الدنيا والعناية بالاعتدال والتوازن في كل أمورها، ويروى أن عروة بـن الزبير ـ رضي الله عنه ـ كان إذا رأى شيئًا من أخبـار السلاطين وأحـوالهم بادر إلى منـزله، فـدخله وهـو يقرأ ﴿**ولا تمدن عينيك . . .**﴾ الآية (٤).

هكـذا كانت التربيـة النبـوية الشـاملة المعتـدلـة المتوازنـة تنبه إلى شهـوات

---

(١) سورة آل عمران: ١٥.

(٢) سورة فتح الباري، كتاب الرقاق، باب ما يُتقى من فتنة المال.

(٣) سورة طه: ١٣١.

(٤) القرطبي، سورة طه، ١١/ ٢٦٣.

النفوس، وتصف علاجها، وتوجه اندفاع الناس نحو الدنيا، وتحد من ذلك بالقدر الذي يبني البناء السليم القائم على التقوى والقناعة. ولابن حبان من حديث أبي ذر، قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر أترى كثرة المال هو الغنى، قلت: نعم يا رسول الله. قال: إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب».

وقال ابن بطال: معنى الحديث ليس حقيقة الغنى كثرة المال؛ لأن كثيرًا ممن وسّع الله عليه في المال لا يقنع بما أوتي، فهو يجتهد في الازدياد، ولا يُبالي من أين يأتيه، فكأنه فقير لشدة حرصه، وإنما حقيقة الغنى غنى النفس، وهو من استغنى بما أوتي ورضي، ولم يحرص على الازدياد ولا ألح في الطلب كأنه غنى.

وقال القرطبي: معنى الحديث أن الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النفس وبيانه أنه إذا استغنت نفسه كفت عن المطامع فعزت وعظمت، وحصل لها من الخطورة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس لحرصه، فإنه يورطه في رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءة همته وبخله، ويكثر من يذمه من الناس ويصغر قدره عندهم فيكون أحقر من كل حقير، وأرذل من كل ذليل. والحاصل أن المتصف بغنى النفس يكون قانعًا بما رزقه الله لا يحرص على الازدياد لغير حاجة، ولا يلح في الطلب ولا يلحف في السؤال، بل يرضى بما قسم الله له، فكأنه واجد أبدًا. والمتصف بفقر النفس على الضدّ منه لكونه لا يقنع بما أعطي، بل هو أبدًا في طلب الازدياد من أي وجه أمكنه، ثم إذا فاته المطلوب حزن وأسف، فكأنه فقير من المال؛ لأنه إن لم يستغن بما أعطي فكأنه ليس بغني، ثم غنى النفس إنما ينشأ عن الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لأمره، علمًا بأن الذي عند الله هو خير وأبقى[1].

---

(١) فتح الباري، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس، ١١/ ٢٧٢.

فمعنى القناعة أن يرضى بما وهب الله له مما لا يستطيع تغييره، فالمرء تحكمه مواريث جسمية وتمدّه البيئة والخبرة، وفي حدود ما لا يتيسر له متطلّعًا إلى ما وُهب لغيره ولم يُوهب له (١).

وهذه المعاني والأفكار عالجها النبي ﷺ بقوله: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس».

ويظهر بجلاء من هذا الحديث حرص النبي ﷺ على توجيه النفوس إلى القيم المعنوية الخالدة وإلى الدار الآخرة الباقية، وإلى تقوى الله الحي الذي لا يموت، ويغرس في النفس المؤمنة المبادئ الطيبة، والأسس النبيلة، ويجعل غنى القلب هو الأصل في الغنى، ولا يجعل من كثرة المال أساسًا لذلك وطريقًا للسمو.

وفي الحديث إشارة إلى أن خيرية المال، ليس لذاته، بل بحسب ما يتعلق به، وإن كان يسمى خيرًا في الجملة، وكذلك صاحب المال الكثير ليس غنيًّا لذاته، بل بحسب تصرفه في هذا المال. فإن كان في نفسه غنيًّا لم يتوقف في صرفه في الواجبات والمستحبات من وجوه البر والقربات، وإن كان في نفسه فقيرًا أمسكه وامتنع من بذله فيما أمر به خشية نفاده، وهو في الحقيقة فقير صورة ومعنى، وإن كان المال تحت يديه لكونه لا ينتفع به لا في الدنيا، ولا في الآخرة. بل ربما كان وبالاً عليه(٢).

قال الشاعر:

إن الغني هو الغني بنفسه ... ولو أنه عاري المناكب حافي
ما كل ما فوق البسيطة كافيا ... وإذا قنعت فبعض الشيء كاف

---

(١) راجع: مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، للشيخ يوسف القرضاوي.
(٢) فتح الباري، كتاب الرقاق، باب الغنى غنى النفس ١/ ٢٧٢.

فقه الحديث:

يجوز للمؤمن أن يتخذ الوسائل المشروعة للكسب والادخار والغنى، فقد كان النبي ﷺ يدعو بالغنى: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»، ودعا لخادمه أنس ــ رضي الله عنه ـ بكثرة المال وطول العمر؛ حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: «قالت أمي: يا رسول الله، خادمك أنس، ادع الله له، قال: اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته»(١).

- ما يستفاد من الحديث:

١) يغرس الحديث في نفس المؤمن حب القناعة والرضا بما قسم الله.

٢) ينفر الحديث من الطمع والجشع والحرص على المال والإفراط في حبه على حساب دينه وسلوكه وعقيدته.

٣) لا يحرم الحديث جمع المال بالطرق السليمة، ولا يمنع ذلك، وإنما يوجه المسلم إلى السبل التي تقوده للراحة.

٤) ليس معنى القناعة ترضية الفقراء بالعيش الدون، وحياة الفاقة، والقعود عن السعي، وإنما معنى القناعة كامن في حمد الله على ما قسم، وشكره على ما أعطى، والبعد عن الحقد على الآخرين، والتمتع بما في اليد من المال بنفس راضية مرضية.

---

(١) فتح الباري، كتاب الدعوات، باب دعوة النبي ﷺ بطول العمر وكثرة المال، ج ١١ ص ١٤٤.

الحديث السابع والعشرون: فضل الزرع والغرس

حدثنا ابن نُمَيْر حدثنا أبي حدثنا عبد الملك عن عطاء بن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أُكِلَ منه له صدقة، وما سُرِقَ منه له صدقة، وما أكل السَّبُعُ منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولاَ يَرْزَؤُهُ أحد إلا كان له صدقة**».

- تخريج الحديث:

- رواه مسلم، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، ج١٠، ص ٢١٣.

- رواه البخاري في كتاب الحرث والزراعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه. وفي كتاب الأدب باب رحمة الناس والبهائم م١٠، ص ٤٣٨ فيه:

«عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة إلا كان له به صدقة».

- مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٣، ص ١٤٧، عن أبي عوانة عن قتادة عن أنس برواية البخاري نفسها، إلا أنه قدم «يزرع زرعًا، أو يغرس غرسًا فيأكل منه الطير. . .».

- رواه الترمذي، أبواب الأحكام، باب ما جاء في فضل الغرس، حديث رقم ١٣٩٨. وفي تحفة الأحوذي: والحديث رواه مسلم عن جابر، وفي رواية له عنه: «لا يغرس مسلم غرسًا، فيأكل منه إنسان، ولا دابة، ولا طير إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة» م٤، ص٦٣٦، حديث رقم ٤٠.

- سنن الدارمي، باب فضل الغرس، برواية أم بشر، ص ٢٦٩.

- فتح الباري، كتاب الحرث والمزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، م٥، ص ٣.

- درجة الحديث:

وفي الباب عن أبي أيوب وأم مبشر وجابر وزيد وخالد، حديث أنس حديث حسن صحيح، وأخرجه البخاري ومسلم.

- الراوي:

جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سَلمَة، الإمام الكبير المجتهد الحافظ، صاحب رسول الله ﷺ، أبو عبد الله، وأبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي السلمي المدني الفقيه، من أهل بيعة الرضوان، وكان آخر من شهد ليلة العقبة الثانية موتًا.

روى علمًا كثيرًا عن النبي ﷺ، وعن عمر وعلي وأبي بكر وأبي عبيدة ومعاذ بن جَبَل والزبير وطائفة.

وحدّث عنه ابن المسيب وعطاء بن رباح والحسن البصري والحسن بن محمد ابن الحنفية وغيرهم. وكان مفتي المدينة في زمانه بعد ابن عمر أعوامًا، وتفرد بأحاديث، شهد ليلة العقبة مع والده، وكان والده من النقباء البدريين، استشهد يوم أُحد، وأحياه الله تعالى وكلمه، وقد انكشف عنه قبره؛ إذ أجرى معاوية عينًا عند قبور شهداء أُحد، فبادر جابر إلى أبيه بعد دهر فوجده طريًّا لم يبل، وكان جابر قد أطاع أباه يوم أُحد، وقعد لأجل أخواته، ثم شهد الخندق وبيعة الشجرة، وشاخ وذهب بصره، وقارب التسعين.

وكان ممن خصه الرسول ﷺ باللمحات التربوية الخاصة، فكان يعطيه وقته

وجهده، ويعتني به بالدعاء له مرة، وبالمساعدة مرة أخرى، وبالاستغفار مرة ثالثة. روى حماد بن سلمة عن أبي الزبير عن جابر قال: استغفر لي رسول ﷺ ليلة البعير خمسًا وعشرين مرة، وقصته أنه كان مع النبي ﷺ في سفر، فباع بعيره من النبي ﷺ، واشترط ظهره إلى المدينة، والقصة لمحة جميلة من لمحات محبة الرسول ﷺ لجابر ومداعبته له، ومساعدته ﷺ في وليمته وزواجه.

ومنّ الله عليه بالعمر الطويل وبالصحبة المباركة مع مراحل الدعوة والجهاد. عن جابر قال: «غزوت مع رسول الله ﷺ ست عشرة غزوة، لم أقدر أن أغزو، حتى قتل أبي بأُحد، كان يخلفني على أخواتي، وكن تسعًا، فكان أول ما غزوت معه حمراء الأسد». وخلال هذه الغزوات يتتبع خطوات الرسول ﷺ، ويرتوي من مناهل علمه، ويكتسب خبرة في الحياة، وأسوة في أمور الدعوة، ودروسًا وعبرا في مجال الجهاد، فيزداد علمًا وتبحرًا وشوقًا إلى الاستزادة من العلم. وقصصه في طلب العلم والرحلة له مشهورة، ويروى أن جابرًا رحل في حديث القصاص إلى مصر ليسمعه من عبد الله بن أُنَيْس.

قال الواقدي: إنه ــ رضي الله عنه ــ مات سنة ثمان وسبعين، وعاش أربعًا وتسعين سنة، ومسنده بلغ ألفًا وخمسمائة وأربعين حديثًا. اتفق له الشيخان على ثمانٍ وخمسين حديثًا، وانفرد له البخاري بست وعشرين حديثًا، ومسلم بمائة وستة عشر حديثًا (١).

المعاني اللغوية والبلاغية:

غَرَس يغرِسُ غرسًا وغراسة وأغرس الشجر: أثبته في الأرض.

الغَرس: مصدر، ج غراس وأغراس.

---

(١) راجع سير أعلام النبلاء، ج٣، ص ١٨٩ ـ ١٩٤، باختصار وتصرف.

الغِراس: ما يغرس من الشجر وقت الغرس، يقال: «هذا زمن الغِراس، كما يقال: هذا زمن الحصاد.

الغَريس: المغروس ـ الغريسة ج غرائس وغراس: النخلة أوّل ما تُثْبتُ الفسيلة ساعة توضع حتى تعلق.

زرع يزرَعُ زرعًا: طرحَ الزُرْعة، أي البذر في الأرض ـ زرع الأرض: ألقى فيها البذر.

البهيمة: ج البهائم كل ذات أربع قوائم من دواب، البرّ والماء ما عدا السباع والطيور.

البَهْمَةُ: أولاد البقر والمَعْزَ والضأن.

رَزَأَ يرزأُ الرجلَ مالَه، المصدر رَزْأً ورُزْأ الشيء: انتقص.

الرزيئة ج رزايا ـ المصيبة العظمى.

وإذا خرجت النخلة من النواة فهي غريسة، ثم يقال لها ودية، ثم فسيلة، ثم إشاءة، فإذا أتتْ اليد فهي جبارة. انظر السهيلي، الأنف، ج١، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١.

- المعنى العام:

إن الإنسان في عرف التصور الإسلامي من أشرف الكائنات الحيّة التي تعيش على وجه البسيطة وأفضلها وأكرمها؛ لما أودع الله فيه من مزايا، وميّزه من صفات، ولما أعده من جليل الغايات، فشرّفه بمكانة الخلافة، وربطه بالكون، وكلفه باستثماره والانتفاع به وتسخيره لمنفعته، قال تعالى: ﴿**الذي جعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم**

فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون﴾[1]، **﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾** [2].

وعلى الإنسان أن يعمل جاهدًا لمعرفة الكون وما فيه، حتى يتحقق له الانتفاع الكامل به وهو حين يفعل ذلك يستجيب لأمر إلهي **﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾**[3].

ومن هذه الآيات يتضح أن من مهمة الإنسان المؤمن تعمير الأرض بحثًا وزراعة واكتشافًا وإحياءً، قال عمر: «من أحيا أرضًا ميِّتة فهي له»[4].

وعن عروة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَعْمَر أرضًا ليست لأحد فهو أحقُّ». قال عروة: قضى به عمر ـ رضي الله عنه ـ في خلافته[5].

ومن هذه الآيات والأحاديث يتضح أن الزراعة والغرس من أبرز المفاهيم الاقتصادية باعتبارها عنصرًا فعالاً من الإنتاج، وقدرتها على توليد الدخل سواء استغلها بنفسه، أو دفعها لغيره بأجر.

عن نافع، عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أخبره أن النبي ﷺ أعمل خيبر بشطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع، فكان يعطي أزواجه مائة وسق، ثمانون وسق تمر، وعشرون وسق شعير . . . ».

---

(١) البقرة: ٢٢.

(٢)

(٣)

(٤)، (٥) البخاري، كتاب الحرث والزراعة، باب من أحيا أرضًا مواتا .

وعن نـافع عن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ـ أن رسـول ﷺ «أعطى خيبر يهود على أن يعملوها ويزرعوهـا ولهم شطر ما يخرج منها»[1]؛ لأن الإسلام يحرص على إحيـاء الأرض وتعميرها، والنبي ﷺ يحب أن يـرى المؤمن سبّاقًـا في تعمير الأرض وزراعتها، فكـان يحث على ذلك بين حين وآخر. وقـد أخرج مسلم عن عبـد بن حميد عن مسلم بن إبراهيم المذكور بلفظ: «إن نبي الله ﷺ رأى نخلاً لأم مبشّر[2] ـ امـرأة من الأنصار ــ فقـال: من غـرس هذا النخـل أمسلم أم كـافر؟ فقـالوا: مسلم». والحديث صـورة حيّة لتحـركات النبي ﷺ للتربيـة الشاملة مـن التربية الإيمانية، والتربيـة الجهادية، والتربيـة الزراعيـة، والاقتصادية، فهـو ﷺ يود أن يكون المؤمن في مقدمة من يهتم بالإنتاج والاقتصاد ورفع المستوى المعيشي؛ حتى لا يكـون عالـة على غيره. وفي الحديث فضل الغرس والـزرع، والحض على عمارة الأرض. ويستنبط منه اتخاذ الضيعة والقيام عليهـا. ومن إعجاز هذا الحديث أنه ﷺ يعطي الأولويـة لغرس النخل؛ لأنها مادة اقتصـادية وطبيـة، وطاقة حـرارية هـائلة تعطي منـاعة للجسم، وتـؤهل المؤمن وتغذيـه لتحمل أعباء الجهـاد، ولا تكـاد تـوجد حتى الآن مـادة غـذائيـة تعـادل بعض مـا يتمتع به أنـواع التمـور، وخصـوصًا تلك التي كـانت تغـرس في المدينة المنـورة، ولذلك رغّب الإسـلام في الإنتاج والعمل والغرس. قال ﷺ: «ما من رجل يغـرس غرسًا إلا كتب الله ـ عز وجل ـ له من الأجـر قدر ما يخرج من ثمر ذلك الغراس»[4].

وقد سلـك النبي ﷺ طرق الحث والتشجيع على الغـرس والزرع، وبـوسائل متنوعة فذكر أنه إذا أكل منه الطير، أو إنسـان، أو حتى بهيمة تكون هذه صدقة

---

(١) نفس المصدر، باب المزارعة مع اليهود.

(٢) هي امرأة زيد بن حارثة.

(٣) فتح الباري، م ٥، كتاب الحرث والمزارعة. باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، ص ٤.

(٤) مسند أحمد بن حنبل، ج٥، ص ٤١٥.

مباركـة يجدها المؤمن في ميـزان حسناتـه يوم القيـامة، حتى يتسع صـدر المؤمن للعطـاء والبذل والكـرم بشتى المعاني. فإذا كـان المسلم مأمورًا أن يكسب أجـرًا بإطعام الطيـور والبهائم، فكيف بأخيـه المؤمن ؟ وكيف بجاره المسكين؟ وكيف بقريبه المحتاج؟

- ميادين الغرس والزرع:

«مـا من مسلم يغرس غـرسًـا أو يزرع زرعًـا . . . إلخ»، الحديث يـوضح أن الكون والأرضين لم يخلق عبثًـا دون غاية أو هـدف، بل إن أهم أهدافـه أن يكون ميدانًـا للنشاط الإنساني، يستخدم فيـه الإنسان طاقـاته وإمكاناتـه، ويسخره لمنفعته، هذه المنفعـة التي ستؤول في النهاية إلى تحقيق عبـادة الله، وقيام شريعته في المجتمع البشري. ومطلـوب من المؤمن أن يستمـر في نشاطـه وعملـه، حتى ولو ظهـرت علامـات الساعة هنـا وهناك. قال ﷺ: «إن قـامت الساعـة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل»(١).

الحديث النبوي يعطي مفهومًا صحيحاً لـلإسلام، بحيث إن طريق العبادة، وطريق الـزراعة، وطريق تعمير الكـون كلها عبادة، قـال تعالى: ﴿**فإذا قضيت الصـلاة فـانتشروا في الأرض وابتغـوا من فضل الله واذكـروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون**﴾(٢).

والنبي ﷺ أول ما ذكـر في هذا الحديث «ما من مسلم يغرس غـرسًا . . .»، وهي كلمة تشمل غرس جميع أنـواع النباتات والأشجار، إلا أن الأولـوية لغرس النخيل، ولذلك يقال: الغريس هي النخلـة أول ما تثبت، وهو ﷺ غرس بيده

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج٣، ص ١٩١.

(٢) سورة الجمعة: ١٠.

المباركة خمسمائة نخلة، وساعد سلمان ـ رضي الله عنه ـ في غرس أشجار النخيل، وفي كل هذه الأحاديث استخدمت كلمة غرس لشجرة النخيل.

وكانت غراسة النخيل من أبرز مظاهر الاقتصاد الإسلامي، «وتعد النخلة أهم الأشجار المزروعة في المدينة، وأكثر أموال أهلها، ومنها معاشهم وأقواتهم، وقد بلغ من أهمية زراعة النخلة على عهد الرسول ﷺ أن أصبح من حق العبد أن يكاتب صاحبه على عدد من النخيل يحييها له بالفقير[1]. وكانوا يتخذون من جريدها وجذوعها سقوفًا وأعمدة لبيوتهم، هذا إلى جانب انتفاعهم بأليافها وخوصها في صنع المكاتل، والقفف، والحصر ونحو ذلك، وكان ثمر النخلة أهم الثمار لدى أهل المدينة، فكانوا إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى الرسول ﷺ، فإذا أخذه قال: اللهم بارك لنا في ثمرنا»[2].

وهذه محاولات الغرس والزرع توجيهات نبوية كريمة تنير معالم الزراعة، وفوائد الخضرة، والغطاء النباتي. ويقول علماء النبات: إن لإحياء الأرض زراعة وإنباتًا فوائد عديدة منها:

١ - يقطع الكساء الخضري استمرار الإشعاع الشمسي للوصول إلى الأرض، فيقلل درجات الحرارة ويمنع تذبذبها الكبير في ساعات الليل والنهار.

٢ - ينقل الرطوبة من التربة إلى الهواء خلال عمليات النتح (وهي إخراج الماء في صورة بخار من الثغور النباتية) والبخر.

وهذه الفوائد تعم النخيل وغيره من النباتات، ومن الملاحظ أن النخيل هو ذلك النبات الوحيد الذي لا يؤذي البيئة التي يعيش فيها، بل على العكس من

---

(١) والفقير للنخلة، الحَفيرة، وإذا خرجت النخلة من النواة فهي غريسة، ثم يقال لها: ودية، ثم فسيلة، ثم إشاءة.

(٢) مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ لعبد الله عبد العزيز بن إدريس، ص ٢٠٦.

ذلك، فإن تثبيت التربة وإصلاحها إنما يقوم بها النخيل بسبب ما يراكمه من جذور وبقايا أعضائه داخل التربة، كما أن النخيل هو الشجر الذي يمكن زراعة نباتات ومزروعات أخرى بجانبه، فلا يؤذيها ولا يؤثر عليها، بل ربما يقدم لها الحماية من عوامل المناخ الأخرى من الحرارة والصقيع، وكذلك الرياح.

تأثير هذا الحديث في التنمية الزراعية وصحة البيئة:

قول الرسول ﷺ: «ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا... إلا كان له به صدقة»، هذا القول حث الناس على الزراعة والإقبال على ممارستها، فكان العرف السائد أن من أحيا أرضًا ميّتة فهي له، وقال عمر: «من أحيا أرضًا ميّتة فهي له»(١).

وعن عروة عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ قال: «من أعمر أرضًا ليست لأحد فهو أحق»(٢). هذا بالإضافة إلى التوسع في إقطاع الأراضي الزراعية لمعظم المهاجرين في وادي العقيق وفي منطقة العالية.

ونتيجة لهذا التوسع الزراعي خارج المدينة أصبح معظم بساتينها في ظاهرها ومحيطة بأكثرها.

وكان للري نصيب كبير في التنظيم الزراعي على عهد الرسول ﷺ، وقد ملك المهاجرون كثيرًا من الأراضي الزراعية الواسعة (بالغابة) و(بالحرة الشرقية).

وقد عمل المهاجرون في بعد على التوسع في زراعة القمح على وجه الخصوص، وإلى جانب ذلك كان يزرع في المدينة بعض الفاكهة، ومن بساتينها ما كان يحمل الفاكهة في السنة مرتين، وكان أشهرها العنب، وهو أنواع مختلفة.

---

(١) فتح الباري، المجلد الخامس، كتاب الحرث والمزارعة، باب من أحيا أرضًا مواتًا.
(٢) المصدر نفسه.

وحكي أن لسعد بن أبي وقاص بالعقيق كرما تباع ثمرته بألف دينار[1].

ومما ساعد على انتعاش الزراعة وتقدمها بشكل واسع غرس الرسول ﷺ الأشجار بأعداد كبيرة وبيده المباركة، مما دفع عددًا كبيرًا من المهاجرين أن يعملوا في الزراعة، وأن يستغلوا الأراضي الزراعية، وأغلب هذه المزارع كانت مسورة بأشجار النخيل، ومحفوفة بجريدها وجذوعها وخوصها. والقرآن يصور مناظر هذه البساتين المحاطة بهذه الأشجار نعمة وجنة الله في الأرض فيقول: **﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعًا﴾**[2].

وهناك روايات أخرى تصور مدى اهتمام أهل المدينة بغرس النخيل والعناية به، واتخاذ الرطب والتمور غذاء، ووسيلة لإكرام الضيف والاحتفاء به، نذكر منها ما يأتي:

حدثني عبد الله بن بريدة قال: سمعت بريدة يقول: جاء سلمان إلى رسول الله ﷺ حين قدم المدينة بمائدة عليها رطب، فوضعها بين يدي رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: ما هذا يا سلمان؟ فقال: صدقة عليك وعلى أصحابك، فقال: ارفعها، فإنا لا نأكل الصدقة فرفعها، فجاء من الغد بمثله، فوضعه بين يديه يحمله، فقال: ما هذا يا سلمان؟ قال: هدية لك، فقال رسول الله ﷺ: «ابسطوا فنظر إلى الخاتم الذي على ظهر رسول الله ﷺ فآمن به». وكان لليهود فاشتراه رسول الله بكذا وكذا درهم، وعلى أن يغرس نخلاً، فيعمل سلمان فيها حتى يطعم، قال: فغرس رسول الله ﷺ نخلاً إلا نخلة واحدة

---

(١) راجع مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ لعبد الله بن إدريس، الفصل الثاني، الحالة الاقتصادية، أولاً: الزراعة.

(٢) سورة الكهف: الآية (٣٢).

غـرسهـــا فحملت النخل من عامها ولم تحمل النخلة، فقال رسول الله ﷺ: ما شأن هذه ؟ قـال عمر: أنا غرستها يـا رسول الله، قال: فنزعهـا رسول ﷺ، ثم غرسها فحملت من عامها.

وهـذا نموذج رائع لاهتمام الـرسول ﷺ بـالتنمية الـزراعية وبغـرس النخيل. ويباشر هـو ﷺ بنفسه ليكون قدوة، ثم يترك مجالاً فسيحًـا ليعمل سلمان فيها، حتى يطعم ويتصـدق ويقـدم هـدايا ويكـون مـؤمنًـا فعالاً صـالحًا يشـارك في الإنتاج.

وهـو في ذلك ﷺ يحثنا على الـزرع والغـرس، حتى لو كـانت القيـامة تنـذر بـوقوعهـا «وكان بيـد أحدكم فسيلـة فليغرسهـا؛ ذلك لأن الزراعـة والخضرة لها منـــافع لا حصر لها، ولا سيما في تنقيـة البيئـــة والأجـواء المحيطـــة بها. فعلماء البيولوجيا يميـزون بين الحيوان والنبات بمعطيات عديدة أهمهـا مادة اليخضور، والتي لا وجـود لها في الحيوان، هـذه المادة يخصها العلماء بكثير من الأهميـة، إذ لـولاهـا لما وجـدت الحياة واستمـرت على الأرض، فـوظيفتهـا هي في تلقي نـور الشمس وأشعتها وتحويلها إلى مـواد عضوية غذائية كالسكـريات والنشويات، والتي هي أسـاس الغـذاء على الأرض فضلاً عما تطـرحـه من كميـات كبيرة من الأوكسجين، والإنسان في أمس الحاجة إلى كل منها.

- دور الأشجار والنبات في تنقية الجو وتطهير البيئة:

الأحاديث المذكـورة تشير أيضًا إلى أنـه ﷺ أولى اهتمامًا كبيرًا لغـرس الأشجار بجميع أنواعهـا، ولتشجير الأرض وتعهد ورعـاية النباتـات؛ لأن تعمير الكون يشمل هذه المعاني، وهي أيضًا من واجبات الخلافة في الأرض، وتفتح نافذة إلى علم الأحياء، وعالم النبـات؛ ولأنها لا تحتاج إلى تكاليف باهظـة؛ لأن النباتات تعتمـد على نفسهـا في تكـوين غـذائهـا، فهي تحصل على غـذائهـا من الهواء

والتربة، فتأخذ من الهواء ثاني أكسيد الكربون، ومن التربة الماء والأملاح المعدنية، ولهذا السبب تدعى النباتات بذاتية التغذية.

يحتاج النبات إلى عناصر عديدة بالإضافة إلى الكربون والأوكسجين والهيدروجين والنيتروجين، وبالإضافة إلى العناصر المذكورة يحتاج إلى كمية ضئيلة من النحاس والقصدير والمنجنيز، وهذه العناصر ضرورية أيضًا لحياة النبات.

وإن امتصاص الماء والأملاح المعدنية من التربة ليتم عن طريق الشعيرات الجذرية في الجذور، وتعرف بخاصة تدعى الخاصية الأسموزية.

أما الموارد التي تزيد عن حاجة النبات فتخزن في أعضاء النباتات المختلفة كالجذور، والساق، والورق، والبذرة، والثمرة.

فالنبات الأخضر هو الذي يصنع الغذاء ويستفيد من هذا الغذاء بشكل مباشر وغير مباشر، فلولا النبات الأخضر لما كانت هناك حياة على سطح الأرض. فالعناية بالنبات من أبرز معاني تعمير الأرض والكون.

ومن الفوائد الأخرى للنباتات الخضراء أنها تحافظ على ثبات نسبة ثاني أكسيد الكربون والأوكسجين في الجو، فالنبات الأخضر يأخذ ثاني أكسيد الكربون ويطرد الأوكسجين أثناء عملية التمثيل الضوئي، وبذلك يحفظ نسبة ثاني أكسيد الكربون الناتج عن تنفس الكائنات الحيّة ثابتة في الجو [1]، ومن هنا ندرك سر الإعجاز للحديث النبوي «ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة إلا كان له صدقة».

---

(١) علم الأحياء للصف الأول، وزارة المعارف، ص ٧٦.

وفي هذه الأحاديث يعطي النبي ﷺ الأولوية لغرس النخل؛ لأنها سيدة الأشجار، تعيش وسط الصحاري بالماء، ولا تكاد تفقد خضرتها طوال الأيام، ومن الممكن أن تقاوم العطش وقلة الماء مدة طويلة، وهي تزرع أيضًا بقصد الاحتماء من أضرار سرعة التيارات الهوائية، ولصد العواصف الرملية والرياح الحارة والباردة، وبغرض حماية الحقول والحدائق من التلف والفساد، وهي من أجمل نعم الله على عباده في الأرض. قال تعالى: ﴿**والأرض وضعها للأنام * فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحب ذو العصف والريحان * فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾(١).

﴿**والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقًا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج**﴾(٢). فغراسها وزراعتها مهمة للغذاء والرزق وضرورية لحماية البيئة من الأخطار والمواد الملوثة للبيئة، ويكفي أن الله تعالى ذكرها على تعداد النعمة على عباده، ﴿**فيها فاكهة ونخل ورمان * فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾(٣).

علاوة على ذلك فعالم النبات ودنيا الغرس والأشجار عالم يموج بشتى الأنواع وبدائع الزخارف وعجائب الأنماط، فسبحان من شق الحب بقدرته، وأخرج منه النبات، وشق النواة، وأخرج منه الأشجار، وبعث الرسول القائد الرائد يَغْرِسُ بيده ويزرع بنفسه ويتعهد النبات والأشجار ليزداد المؤمن إيمانًا بهذا الدين الخالد الشامل الذي يشمل العبادة والزراعة والجهاد، ويهتم بالإنبات والإنتاج، ويرشد إلى حماية البيئة ودراسة علم الأحياء وعالم النبات.

---

(١) سورة الرحمن: الآيات ١٠ ـ ١٣.

(٢) سورة ق: الآيتان ١٠، ١١.

(٣) سورة الرحمن: الآيتان ٦٨، ٦٩.

- القيمة الغذائية للتمر:

وكانت غراسة النخيل من أبرز مظاهر الاقتصاد الإسلامي، وكان لتشجيع الرسول ﷺ أثر بالغ في الإقبال نحو الغرس والمزارعة، ففي المسند عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من غرس غرسًا فأكل منه إنسان، أو طير، أو دابة، فهو له صدقة»(١).

وأدرك الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ أبعاد هذا الحديث وأدركوا قيمة الغرس والزرع، وبالذات غرس النخيل، فهو بهجة للنفس ومسرة للعين وزينة الأرض، وهل هناك أجمل من سهل، أو جبل، أو وادٍ تسرِّح نظرك فترى النخيل في اخضراره، وتتفيأ بظلاله، وتتمتع بقنواته، وتستلذ برطبه، فإنه زاد المسافر والمغترب، ولذلك تعد النخلة أهم الأشجار المزروعة في المدينة، وأكثر أموال أهلها، ومنها معاشهم وأقواتهم. وقد بلغ من أهمية زراعة النخلة على عهد الرسول ﷺ أن أصبح من حق العبد أن يكاتب صاحبه على عدد من النخل يحييها له بالفقير(٢). وكانوا يتخذون من جريدها وجذوعها سقوفًا وأعمدة لبيوتهم، هذا إلى جانب انتفاعهم بأليافها وخوصها في صنع المكاييل والقفف والحصر ونحو ذلك. فهي كلها مبروكة ومستثمرة. عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال: بينا نحن عند النبي ﷺ جلوس إذ أوتي بجُمّار نخلة، فقال النبي ﷺ: «إن من الشجر لما بركته كبركة المسلم، فظننت أنه يعني النخلة، فأردت أن أقول هي النخلة يا رسول الله، ثم التفت فإذا أنا عاشر عشرة، أنا أحْدثهم، فسكت، فقال النبي ﷺ هي النخلة»(٣).

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج٣، ص ٣٩١.

(٢) والفقير للنخلة: الحفيرة، وإذا خرجت النخلة من النواة فهي غريسة، ثم يقال لها: وديّة، ثم فسيلة، ثم إشاءة.

(٣) فتح الباري، ج٩، كتاب الأطعمة باب أكل الجمار.

والحديث يشير إلى أهمية النخل وقيمته ومكانته وفوائده الجمة الشاملة من غذاء وكساء، وما إلى ذلك إلى درجة أنه ﷺ يشبهه بأمر المؤمن، فإن أمره كله خير وكذلك النخلة.

ولذلك كان ثمر النخلة أهم الثمار لدى أهل المدينة وآثره لديهم، فكانوا إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى الرسول ﷺ، فإذا أخذه قال: اللهم بارك لنا في تمرنا[1].

إن أول صفات المجاهدين من أهل الصحراء هي القوة، وبعض صفاتهم الأخرى التحمل والصبر والمناعة ضد الأمراض، فكيف ولماذا اكتسب أولئك صفاتهم هذه؟

من المؤكد أن للغذاء الرئيسي الذي يتناولونه، وهو التمر، أكبر الفضل في ذلك، حتى إن العلم لقب التمر بأنه «منجم» غني بالمعادن، وهذا غير فوائده الأخرى التي تجعل منه غذاء كاملاً بكل ما في الكلمة من معنى وإلى هذا يشير صلوات الله وسلامه عليه في أكثر من حديث.

«حدثنا سليمان بن بلال، عن هشام، عن عروة، عن أبيه، عن عائشة أن النبي ﷺ قال: لا يجوع أهل بيت عندهم التمر».

عن محمد بن عبد الرحمن عن أمه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهلُهُ، يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهله ـ أو جاع أهلُهُ، قالها مرتين أو ثلاثًا»[2].

وفي السيرة النبوية وقصص حياة الصحابة وجهادهم في الغزوات والسرايا دور كبير للتمر كغذاء رئيسي من أغذيتهم بصورة تؤكد لنا إعجاز الكلام

(١) مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ لعبد الله عبد العزيز بن إدريس، ص ٢٠٦.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٣، كتاب الأشربة، نهي الأكل مع جماعة عن قران تمرتين.

النبوي، ولا يجوع أهل بيت عندهم التمر. وحدثنا أبو عبد الرحمن قال: سمعت أبي يحدث عن عمرة عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «بيت ليس فيه تمر كأن ليس فيه طعام»[1].

والأحاديث تفسر لنا كيف استطاع الصحابة أن يجدو القدرة على أن يفتحوا البلاد والأمصار، ويقاتلوا الأعداء من الكفار، وليس في جوف المجاهد ولا في حوزته سوى بضع تمرات.

وفي رواية أنه ﷺ خرج في غزوة بدر يحرض الناس على القتال، ويقول: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة، فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة وفي يده تمرات يأكلهن: بخ، بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل [2].

وكتب الطب والمعامل الغذائية الطبية تؤكد لنا قيمة هذه التمرات، وتوضح لنا إعجاز الكلام النبوي: بيت ليس فيه تمر، كأن ليس فيه طعام.

إن التمر هذه الفاكهة الصحراوية الممتازة غني جدًّا بالمواد الغذائية للإنسان. فإن كيلو جرامًا منه يعطي ثلاثة آلاف كالوري، أي ما يعادل الطاقة الحرارية التي يحتاج إليه الرجل المتوسط النشاط في اليوم الواحد، وبعبارة أخرى أن الكيلوجرام الواحد من التمر يعطي نفس القيمة الحرارية التي يعطيها اللحم، وإنما الذي يعطيه الكيلو الواحد من البلح يعادل ثلاثة أضعاف ما يعطيه كيلو واحد من السمك. وهذا أحد معاني قوله ﷺ: «لا يجوع أهل بيت عندهم التمر».

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج٦، ص ١٠٥.

(٢) سيرة ابن هشام، القسم الأول: غزوة بدر الكبرى، ص ٦٢٧.

إن التمر يحتوي على الفيتامين (أ) وهو موجود بنسبة عالية تعادل نسبته في أعظم مصادره . . أي تعادل نسبته في زيت السمك وفي الزبدة .

وبما أن الفيتامين (أ) يسمى بفيتامين النمو، فإنه يساعد جسم الفتيان والفتيات والأطفال على النمو والتكامل، فيغدو الفتى نشيطًا رشيقًا . وإلى هذه القيمة الغذائية يشير طبيب الأمة ونبي الهدى فيقول : «يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهله، أو جاع أهله قالها مرتين أو ثلاثًا» . وكأنه ﷺ ينير الطريق للصيادلة والأطباء والمعامل الغذائية للبحث عن القيمة الغذائية في هذا التمر، فيؤكد عليها مرتين أو ثلاثًا . والآن يقول الطب الحديث : «إن التمر غني بالفوسفور بنسبة عالية، فهو أغنى من المشمش والإجاص والفريز، وأغنى من العنب، ففي كل مائة جرام من التمر نجد أربعين ميلليجرامًا من الفوسفور، بينما لا تزيد كمية الفوسفور الموجودة في أية فاكهة عن عشرين ميلليجرامًا في نفس الكمية . والتمر كذلك غني بعدد أنواع السكاكر كالغليكوز (سكر العنب)، والليكولوز (سكر الفاكهة)، والسكاروز (سكر القصب)، ونسبته فيه تبلغ حوالي سبعين في المائة . ولذا فالتمر وقود من الدرجة الأولى، والسكاكر الموجودة في التمر سريعة الامتصاص، سهلة التمثيل تذهب رأسًا إلى الدم، فالعضلات لتهب لها القوة وإلى الحجيرات لتمنحها القدرة والحرارة؛ إذ لا يحتاج امتصاصها إلى عملية هضمية وعمليات كيماوية حيوية معقدة .

وتستطيع المعدة هضم التمر وامتصاص السكاكر الموجودة فيه خلال ساعة أو بعض الساعة، فتسير في الدم بسرعة حاملة الوقود إلى الدماغ والعضلات، ولذلك ينصح الأطباء الصائمين الذين يشعرون بالدوخة، والتراخي، وزوغان البصر بتناول كمية من السكاكر، إذ تزول الدوخة، ويزول الكسل خلال نصف ساعة تقريبًا، وهي سنة الرسول ﷺ في الإفطار. وقد كان يقتصر في إفطاره على بضع تمرات وجرعة من الماء (الأسودان : التمر والماء) .

ولقد أثبت الطب الحديث مدى إعجاز سنة الرسول الأعظم ﷺ في الصيام وفي الإفطار.

وفائدة السكاكر الموجودة في التمر لا تنحصر في منح الحرارة والقدرة على النشاط، بل إنها مدرة للبول تغسل الكلى وتنظف الكبد[1].

- عناصر الشفاء في التمر:

وهناك معالم صحية مهمة للتمر، قَلَّ من ينتبه إليها وهو أنه يضفي السكينة والدعة على النفوس القلقة، ويرد الطب الحديث المزاج العصبي إلى نشاط الغدة الدرقية الرابضة في مقدم العنق، وقد عرف أخيرًا بأن بعض النباتات والثمار لها خاصة ضد الدرقية تحد نشاطها وتلجم مفرزها نذكر منها الجزر والسبانخ، وفي طليعة هذه النباتات التمر ويعلل الطب الحديث هذه الأغذية باحتوائها على فيتامين (أ) الذي يلعب دورًا مهمًّا مضادًّا للدرق، مما جعل العلماء المتتبعين، ينادون بمعالجة المصابين بالعصى (أي باشتداد الودى Vagotonie)، ومعالجة المضطربة أعصابهم بالفيتامين (أ)، وبخاصة إعطاؤه مصادره الطبيعية كالتمر. وقد وصف القرآن الكريم التمر (علاجًا وغذاءً) لمريم عليها الصلاة والسلام في حالة الولادة والنفاس ﴿**وهُزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رُطبًا جنيًّا * فكلي واشربي وقري عينًا**﴾[2]، أي طيبي نفسًا، ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب[3]. والرطب والتمر من أجود طعام النفساء[4]. ويؤكد ﷺ هذه المفاهيم الطبية؛ فعن عامر بن سعد عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي

---

(١) راجع الغذاء لا الدواء للدكتور صبري القباني، باب التمر من ص ١١٩ إلى ١٣٠ بتصرف.

(٢) سورة مريم: آية (٢٥).

(٣) تفسير ابن كثير، سورة مريم، ص ١٩٠.

(٤) في ظلال القرآن الكريم، سورة مريم، ج١٦، ص ٢٣٠٧.

ﷺ: « من اصطبح كل يوم تمرات عجوة لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم إلى الليل». وقال غيره (سبع تمرات)[1]. وزاد أبو ضمرة في روايته التقييد بالمكان أيضًا ولفظه: «من تصبح بسبع تمرات عجوة من تمر العالية»، والعالية القرى التي في الجهة العالية من المدينة.

وقد أخذ النسائي من حديث جابر رفعه «العجوة من الجنة وهي شفاء من السم»، وفي رواية لابن أبي مليكة «شفاء أول البكرة أو ترياق».

والترياق دواء مركب معروف، وأطلق على العجوة تشبيهًا لها به. وأما قوله إلى الليل، فمفهومه أن السر الذي في العجوة من دفع ضرر السحر والسم يرتفع إذا دخل الليل في حق من تناوله من أول النهار[2].

وللعلماء في أحاديث الشفاء تأملات ودراسات ووقفات متأنية نذكر بعضها ونقف عند البعض الآخر بإذن الله وقفة الدارس المتأني.

● قال الخطابي: كون العجوة تنفع من السم والسحر إنما هو ببركة النبي ﷺ لتمر المدينة لا لخاصية في التمر، وقال شراح المصابيح نحوه، وأن ذلك لخاصية فيه.

● وقال ابن القيم: عجوة المدينة من أنفع تمر الحجاز، وهو صنف كريم، وهو من ألين التمر وألذه. قال: والتمر في الأصل من أكثر الثمار تغذية لما فيه من الجوهر الحار الرطب، وأكله على الريق يقتل الديدان لما فيه من القوة الترياقية، فإذا أديم أكله على الريق جفف مادة الدود وأضعفه [3].

وخلاصة الآراء أن أحاديث الشفاء تؤخذ مقيدة كقول النبي ﷺ: «الحبة السوداء شفاء من كل داء». قال الخطابي (من كل داء) وهو من العام الذي يراد

---

(١) فتح الباري ج١٠، كتاب الطب، باب الدواء بالعجوة للسحر، ص ٢٣٨.
(٢) فتح الباري ج١٠، ص ٢٤٠. كتاب الطب: باب الدواء بالعجوة للسحر.
(٣) المصدر نفسه، باب الحبة السوداء.

به الخاص. كذلك كان النبي ﷺ يعجبه الحلوى والعسل. وقال أبو بكر بن العربي: العسل عند الأطباء أقرب إلى أن يكون دواء من كل داء من الحبة السوداء. فإن كان المراد بقوله في العسل (فيه شفاء للناس) الأكثر الأغلب، فحمل الحبة السوداء على ذلك أولى، وقال غيره: كان النبي ﷺ يصف الدواء بحسب ما يشاهده من حال المريض، فلعل قوله في الحبة السوداء مرض من مزاجه بارد، فيكون معنى قوله شفاء من كل داء، أي من هذا الجنس الذي وقع القول فيه والتخصيص بالحاثية كثير شائع والله أعلم[1].

وكأنه ﷺ يشير إلى بعض هذه التقيدات. حدثني إبراهيم بن سعد عن أبيه قال: سمعت عبد الله بن جعفر قال: رأيت النبي ﷺ يأكل الرطب بالقثاء[2].

وأخرج النسائي بسند صحيح عن حميد عن أنس رأيت الرسول ﷺ يجمع بين الرطب والحزيز، وقد ورد في التعليل بأن أحدهما يطفئ حرارة الآخر[3].

ويقول الطب الحديث إن التمر غني جدًّا بالمواد الغذائية الضرورية للإنسان، فإن كيلو جرامًا واحدًا منه يعطي ثلاثة آلاف كالوري في اليوم الواحد، وهذه الكمية تتطلب الاندفاع إلى شرب الماء، قد لا يرتاح الإنسان في أداء واجبه في ساحات الجهاد، وميادين الغرس والزراعة، بينما القثاء غني بالماء ويحوي كميات لا بأس بها من الفيتامين أ: A والفيتامين ج: C لا يحتوي على مواد غذائية كثيرة، وهو علاج أيضًا لأصحاب الأجسام النحيلة. فأخرج ابن ماجه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أرادت أمي تعالجني للسمنة لتدخلني على النبي ﷺ فما استقام لها ذلك حتى أكلت الرطب بالقثاء فسمنت كأحسن سمنة[4].

---

(١) المصدر نفسه، باب الحبة السوداء، ص ١٤٥.

(٢) فتح الباري، ج٩، كتاب الأطعمة، باب القثاء.

(٣) المصدر نفسه، كتاب الأطعمة، باب جمع اللونين أو الطعامين بمرة.

(٤) فتح الباري، ج٩، كتاب الأطعمة، باب جمع اللونين أو الطعامين بمرة، ص ٥٧٣.

وحديث جابر ـ رضي الله عنه ـ المرفوع: «العجوة من الجنة، وهي شفاء من السم»، ثم عناية الرسول ﷺ بغرس أشجار النخيل والاحتفاء بثمره والعناية بأنواعه المتعددة، كل هذه الحفاوة البالغة تدل على أن التمر ككل فيه فوائد جمة، وفيه شفاء لأكثر من مرض كما تبينت الدراسات الطبية الحديثة الآن.

فالأطباء الإخصائيون في الأذن يصفون الفيتامين (أ) لتقوية الأعصاب السمعية، وعلى هذا فالتمر يفيد الشيوخ الذين بدأوا يعانون قلة السمع والوشيش، أو بالأصح ضعف الأعصاب السمعية.

ويحتوي التمر على الفيتامين (ب ١)، والفيتامين (ب٢)، والفيتامين (ب ب)ومن شأن هذه الفيتامينات تقوية الأعصاب وتليين الأوعية الدموية، وترطيب الأمعاء وحفظها من الالتهاب والضعف. والأطباء يصفون فيتامين (ب١) في الآفات العصبية، وفي الشلل، وفي استرخاء القلب، وفي القرحة المعدية، وفي الجهود العضلية والفكرية، كما يصفون الفيتامين (ب٢) في آفات القلب، واليرقات، وتشقق الشفاه، وفي تكسر الأظافر، وجفاف الجلد. ويضم التمر هذه الخواص الشفائية مجتمعة [١].

ويستمر الطب الحديث يحلل أجزاء التمور ويتبين معالم الشفاء فيه، فيقول: وفائدة السكاكر الموجودة في التمر لا تنحصر في منح الحرارة والقدرة والنشاط، بل إنها مدرة للبول تغسل الكلى وتنظف الكبد (من السموم)، ويبقى السكر العلاج الأوحد في معالجة تسمم الدم[٢]. وصدق الرسول ﷺ طبيب هذه الأمة أن في العجوة شفاء من السم.

---

(١) راجع الغذاء لا الدواء، للدكتور صبري القباني، ص ١٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

وفي المعجمات الطبية القديمة جاء ذكر التمر على أنه أحد الثمار الصدرية الأربعة التي يعطى منقوعها لمن يشكو السعال والبلغم والتهاب القصبات.

والتمر غني بالفوسفور بنسبة عالية، والفوسفور يدخل في تركيب العظام والأسنان، وإن الفوسفور هو الغذاء المفضل للحجيرات النبيلة Nobles في جسم الإنسان، وهي حجيرات الدماغ والتناسل، وذلك يمكننا من إدراك قيمة التمر الدوائية في تعويض ما يفقده أرباب الفكر والقلم، ويمكننا أن نعرف أيضًا مدى أثره في القوة الجنسية، وأن هذا الفوسفور له دور فعال في تقوية الذاكرة مما كان له أكبر الأثر في حفظ القرآن والحديث والشعر[1].

- فقه الحديث:

● في الحديث فضل الغرس والزرع والحض على عمارة الأرض، ويستنبط منه اتخاذ الضيعة والقيام عليها ! وهذا يتعارض مع حديث ابن مسعود مرفوعًا. لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا».

قال القرطبي: يجمع بينه وبين حديث الباب بحمله على الاستكثار والاشتغال به عن أمر الدين، وحمل حديث الباب على اتخاذها للكفاف، أو لنفع المسلمين بها وتحصيل ثوابها[2].

- إحياء الأرض الموات:

لقد عبر الفقه الإسلامي عن استغلال ظاهر الأرض وقشرتها عن طريق تعميرها بالزرع والغرس، أو البناء والإنشاء بالإحياء، والمرجع في ذلك العرف[3] مقتبسًا من قوله تعالى: ﴿**وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًّا فمنه**

---

(١) الغذاء لا الدواء، للدكتور صبري القباني، ص ١٢٤ بتصرف.

(٢) فتح الباري ج٥، باب الحرث والمزارعة، ص ٤.

(٣) العدة للمقدسي، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

تأكلون﴾[1]، ومن شروط الإحياء: «أن لا تكون ملكًا لأحد»، أن لا تكون داخل البلد.

ومن السنّة: عن محمد بن عبد الرحمن، عن عروة، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ قال: «من أعمر أرضًا ليست لأحد فهو أحق»، قال عروة: قضى به عمر ـ رضي الله عنه ـ في خلافته، سواء أذن له الإمام أم لم يأذن ـ هذا قول الجمهور، وعن أبي حنيفة لا بد من إذن الإمام مطلقًا، واحتج الطحاوي للجمهور مع حديث الباب بالقياس على ماء البحر والنهر، وما يصاد من طير، أو حيوان، فإنهم اتفقوا على من أخذه أو صاده يملكه، سواء قرب أم بعد، وسواء أذن الإمام أو لم يأذن[2].

- ما يستفاد بالحديث:

(١) الحديث يحض على الزراعة وهي نعمة من نعم الله على عباده وشكر النعمة في هذا المقام باستغلال الأرض فيما ينتفع به من غرس أو زرع ﴿**فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون**﴾[3].

وينبغي هنا مراعاة الأولويات في أنواع العبادات، فالصلاة أوّلاً، ثم البحث في أنواع العبادة: من فضل الله، والعناية بمجالات الكسب الحلال، وميادين التربية، وساحات الجهاد . . . إلخ.

(٢) الحديث يحث على الإنتاج الزراعي وطلب الرزق الطيب بكد اليمين، وعرق الجبين.

---

(١) سورة يس: ٣٣.

(٢) فتح الباري، ج٥، باب الحرث والمزارعة، ص ١٨.

(٣) سورة الجمعة: ١٠.

(٣) الحديث يبين بعض مفاهيم الاستخلاف في الأرض، وتعمير الكون، من غرس أو زرع، وتسميد أو ري؛ لأن الزراعة من أهم الأسس التي يرتكز عليها الاقتصاد الإسلامي التي تحدد العلاقة بين الإنسان وما سخر له ﴿**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**﴾(١).

(٤) الحديث يوضح أن الموارد الطبيعية في الأرض كلها مسخرة للإنسان، ومعدّة للاستفادة منها بمقدار ما يتيسر للإنسان اكتشاف سنن الله فيها، وأن تشجير الأرض، وغرس الأشجار وزراعتها من أبرز معاني التسخير، ولذلك فإنه ﷺ أولى اهتمامًا كبيرًا بغرس الأشجار وإحياء الأرض.

(٥) الحديث يوسِّع أفق المؤمن وقلبه وينير له سبل الكرم، وطرق الصدقات، فإذا ما أُكِلَ منه بستانه، أو مزرعته، فهو له صدقة، حتى ولو أكل منه الطير فهو له صدقة، فكيف بأخيه المؤمن الجائع؟ وكيف بقريبه المحتاج؟ وكيف بالسائل المحروم والمعذور؟ فإنهم يفتحون أبواب الصدقات لأخيه المزارع فيزول بذلك البغضاء والشحناء، ويحل محله الوئام والمحبة.

(٦) الحديث يربط الدنيا بطريق الآخرة، ويثبت أن الدين ليس عزلة عن الحياة، وإنما هو صميم الحياة ﴿**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين**﴾(٢).

﴿**قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة**﴾(٣).

---

(١) سورة الملك: ١٥.

(٢) سورة القصص: ٧٧.

(٣) سورة الأعراف: ٣٢.